الفصل التاسع عشر
الكمين

في طريق عودتنا إلى مخيم الرولة، وبعد حوالي ساعة على فراقنا لابن مهيد، هاجمنا البدو من كمين في الوادي. العمليات التي تلت ذلك كانت قصيرة، ولكنها أودت بحياة عبد الكريم العزيز جداً على فارس، بينما خلف المهاجمون وراءهم ثلاثة قتلى. ثبت أنهم من قبيلة السبع من بيت راكان.

كانت نهاية عبد الكريم فظيعة. كان يجلس خلفي مباشرة في السيارة، فجرحته رصاصة مزّقت أحشاءه. وعندما أدرك حتمية النهاية أمر عبده أن يطلق النار على رأسه أمام أعيننا. حفرنا له قبراً بسيطاً في الرمل. كنا مشغولين بالميت عندما قال سليمان (الذي كان في مركز الحراسة) إنه رأى خلال منظاره ثلاث سيارات تحاول عبور الوادي على مسافة قريبة منا للوصول إلى جانبنا.

دفعنا سيارتنا إلى مكان محمي في الوادي واتخذنا استعداداتنا للعمل. تقدم **السابا** نحونا بحذر لسوء الرؤية في الوهج الباهر ولكننا في النهاية أصبنا بعض الأهداف، وتراجع العدو إلى أبعد من مدى بنادقنا.

بينما راقب سليمان وفارس تحركات أعدائنا بدأنا بالعمل لتبديل الإطارات التي تمزقت في المعركة السابقة، وإصلاح المشعّ المعطوب. ولم نستطع أكثر من

obeikandl.com

إتمام هذا العمل بالترقيع، ولكننا لحسن الحظ استطعنا دفع السيارة الثقيلة من مجرى النهر والتقدم نحو الأعداء.

ولدى قدومنا انقسم **السابا** بغرض مهاجمتنا من الجانبين. اتجه محجم نحو السيارة التي انعطفت فجأة وتوقفت وجانبها نحو الأمام أطلق علينا راكبو السيارة وابلاً من الرصاص، وعلى الرغم من أن عدداً من هذه الطلقات أصاب سيارتنا تمكنا من الاندفاع إلى الأمام، وأجابت بنادقنا على كل طلقة بطلقة مقابلة. ودوى الرصاص على الفولاذ ونسفت الريح عباءاتنا، وصفر الرصاص حولنا، وأصاب الرمل والحصى في أماكن عديدة. وصدرت صرخات عالية من رفاقي، ولكني شعرت أن البعض أصيب بجروح (في الحقيقة جرح مناحي وفارس جراحاً بليغة ولكنهما استمرا في القتال قدر استطاعتهما).

رصاصنا تناقص وبوابل جديدة من الرصاص الفولاذي الغلاف استطعنا أخيراً أن نوقف ركاب سيارة أعدائنا عن العمل. فإن لم يكونوا كلهم أمواتاً أصبح بإمكاننا التأكد بأنه لم يبق منهم قادر على القتال. اندفعنا بسيارتنا إلى بعد مئة ياردة عن السيارة دون أن تجابهنا طلقة واحدة. ولكن حان الوقت الآن لنلتفت إلى السيارتين الأخريين اللتين ظهرتا على يسارنا وعلى مقربة منا.

اتجهنا نحوهما وبعد أن قطعنا ما يزيد عن الميل توقف محرك سيارتنا المعطوب فجأة. وبالطبع لم يكن هناك أي وقت لمحاولة الإصلاح. لم يعد باستطاعتنا المناورة بالسيارة، ناهيك عن الهرب بها فقال محجم: «اخرجوا!» ولم يكن بوسعنا إلا الصمود متخذين من السيارة تغطية لنا. عندها فقط اكتشفت مقدار خطورة إصابات فارس ومناحي. لم يستطع فارس تحريك ساقه الأيمن، وتوجب عليّ أن أحمله عملياً من السيارة، ومن رحمة الله بنا أن سيارتَيْ العدو لم تهاجما في تلك اللحظة الحرجة، لا بد أن الأعداء أصيبوا بخسائر في الهجوم الأول أخطر من خسائرنا، لأنهم تراجعوا وراء مدى بنادقنا وأخذوا بقضاء الوقت بمراقبتنا.

واغتنمت فرصة هذا الهدوء لإخراج حقيبتي الجراحية لتضميد الجرحى. لم تكن جراح صديقي العزيز فارس خطيرة كما تصورت للوهلة الأولى. الأخدود العميق الذي حفرته الرصاصة في القسم الأعلى من فخذه الأيمن أخذ ينزف بشدة، ولكنه لم يكن سوى جرح لحمي. نظّفت الجرح وضمدته بنصف دزينة من القامطات. أما الرصاصة التي جرحت مناحي فذهبت عبر كتفه واستقرت في عضلات رقبته ونجحتُ بإخراجها بسهولة. ولم يظهر على سليمان أسوأ من بعض الخدوش البسيطة في الرسغ. وبينما كنت أضمد هذه الخدوش صاح مناحي طالباً مني الإسراع لأن هجوماً جديداً قد بدأ.

التقطت بندقيتي ونطاق خرطوشي وجثمت تحت مؤخرة السيارة. شعرت بالمرض إلى حدّ الإقياء كما شعرت بالضعف الشديد. كدت لا أستطيع أن أفتح علبة بندقيتي وأدس مشط خرطوش جديد. ربما كان غثياني مردّه إلى الأثير الذي استنشقته بدون إرادة عندما أسعفت جرحانا، شعرت بالتحسن بعد أن جثمت لفترة تحت السيارة وبندقيتي تحت ذراعي.

في تلك الأثناء كانت السيارتان المعاديتان الواحدة خلف الأخرى، مما جعل السيارة الأولى فقط هدفاً جيداً لنا. قذفنا الرصاص إلى جسم السيارة الحديدي ولكن لسوء الحظ ليس بالرصاص الفولاذي، لأن محجماً جلب عدة أمشاط فقط من هذه الذخيرة وأراد توفيرها للحظة الحاسمة وهو اقتصاد سيىء كلفنا غالياً جداً.

والآن انزلقت السيارة ثم خفّفت سرعتها، وأخيراً توقفت على بعد ست مئة إلى سبعمئة ياردة عنا، ولكن السيارة الخلفية اندفعت نحونا بسرعة هائلة وانحرفت بشدة على بعد حوالي عشرة أمتار، وعادت بنفس السرعة التي أتت بها ولم يستغرق كل هذا ثلاثين ثانية.

في هذه اللحظات القليلة حلت بنا مأساة رهيبة أخشى ألا أستطيع ذكر تفاصيلها بدقة. أذكر أنه في اللحظة الحاسمة أدركت أننا أطلقنا طلقتين أو ثلاث فقط، لأننا كنا قد أفرغنا معظم بنادقنا في وقت واحد على السيارة الأولى، وكان

علينا أن نعيد تلقيم بنادقنا. وهذا ما سمح للسيارة الأخرى بالثواني القليلة لكي تهاجمنا دون مقاومة.

عندما توقفت السيارة الأولى (تعطلت بفعل نيراننا) لم يبق في مخزن بندقيتي خرطوشة واحدة. عندما بدأت بوضع مشط ذخيرة جديد سمعت صوتاً مكتوماً عميقاً خلفي وسقوط جسم ثقيل فوقي. نحيّت كتفي لينزلق الجسم فسقط الجسم مترنحاً على الأرض ـ إنه سليمان الذي حدقت عيناه الواسعتان في الفراغ. اخترقت رصاصة صدغه الأيمن وخرجت من فكه الأيسر. في نفس اللحظة شعرت ثانية بأن السيارة المهاجمة لا تبعد أكثر من مئة ياردة، وسمعت صوتاً يصرخ خائفاً محذّراً. «يا رحيم! يا منّان!» إنه فارس الذي يصيح وعندها علمت أنه ليس بجانبي، لأنه زحف من مخبئه لينال نظرة أفضل، فأصبح مستلقياً على الرمال وهو مكشوف تماماً.

وعندما تجاوزنا سيارة الموت أصابت رصاصتها هيكل سيارتنا ولكن على الرغم من الانفعال المحموم وأزيز الرصاص حولي التقطت أذناي عدة مرات في ذروة الضجيج تلك الأصوات المكتومة التي يعرفها كل من شارك في المعارك الحامية: صوت الرصاص في جسم الإنسان، كما سمعت أيضاً الأنين والتأوه. انتصبت قليلاً لألقي نظرة سريعة وجرى الدم بارداً في عروقي، لأنني رأيت فارساً يتلوى أمامي على الأرض.

وانطلقت رصاصاتي الأخيرة بحقد خلف السيارة المتراجعة وعندما انتصبت واتكأت على بندقيتي وتمايلت كالسكران إلى جانب صديقي الذي تمدد ساكناً بدون حراك ووجهه في الرمل فقلبته. كانت عيناه كامدتين ولكنه لا زال على قيد الحياة. أخذ الدم يقطر من زاويتي فمه ويلطخ وجهه الجميل وثيابه، بجانبه يستلقي عبد الكريم وقد ثقب الرصاص جسمه. يا له من منظر رهيب!

أحضرت إحدى قرب الماء التي ملأناها بالماء الكبريتي من تدمر وغسلت بها وجه فارس الذي كان فاقد الوعي مما سهل علي فحص إصابته. فبالإضافة إلى جرح الفخذ البسيط الذي أصيب به في الهجوم الأول أصيب الآن بجرحين

مخيفين في ثديه الأيسر. بدا لي بقاؤه على قيد الحياة شبه معجزة؛ لأن الرصاصتين استقرتا في العمق، ومن غير الممكن استخراجهما بالوسائل المتوافرة، وكلُّ ما استطعت القيام به هو تضميد جراحه بمساعدة محجم. إنهار مناحي من الضعف فجعلناه يجثم على موطئ السيارة. بدا كل شيء غير حقيقي. بدأت مع محجم بجمع البنادق المتناثرة، وأفرغنا الطلقات المستهلكة وحشوناها ثانية وكدسناها بجانب مناحي. وبعد أن حملنا القتيلين إلى السيارة تغلب الإعياء على محجم فسقط فجأة كما لو أصيب بنوبة وبقي ممدداً على الأرض. وبما تبقى لدي من القوة حملت جثة سليمان إلى المقعد الخلفي وجلست على موطئ السيارة بجانب مناحي. غطيت فارساً بعباءة لأنه بدأ يبرد، وشعرت بالعطش فأخذت القربة ذات الماء الكبريتي التي غسلت بها وجه فارس والآخرين شربت بنهم وهذا أنعشني جداً. التقطت منظاري لأنه بدا لي أن شيئاً يتحرك في سيارة العدو المعطوبة ولم يخب ظني. بدا واضحاً أن الرجال يحاولون إصلاح محرك سيارتهم واستطعت بسهولة رؤية ثلاثة رجال يتحركون. أعطيت المنظار إلى مناحي وطلبت منه الاستمرار في مراقبة العدو حتى أعيد إلى محجم وعيه. وسرعان ما نهض وحاول التخلص من إغماءته فشرب بعض الماء وكذلك فعل مناحي.

أصبح لكل منا بندقيتان، حشونا أربعة منها بخرطوش فولاذي الغطاء وقررنا استعمالها أولاً. واستعاد محجم وعيه تماماً فوقف بجانبي. وضعنا مقعداً لمناحي كي يشارك في الدفاع وهو مستند إلى السيارة. كانت الشمس تقترب من الأفق عندما تحركت سيارة العدو. في البداية ابتعد الأعداء عنا، ولكن ذلك كان لمجرد إيجاد أرض ممهدة لكي يعاودوا هجومهم. واتفقنا على أن يطلق محجم النار لوحده وأن أمتنع ومناحي عن إطلاق النار من أجل القتال القريب.

أطلق محجم النار بتأن ولكن بسرعة كافية. أعطيته بندقية أخرى بخرطوش فولاذي. بعد الطلقة الثامنة اصطدمت السيارة المتقدمة وجانبها إلى الأمام على بعد حوالي مئتي ياردة. لابد أنها سارت بدون تحكم السائق خلال الثلاثين ياردة

الأخيرة. رأينا بوضوح في مقعدها الأمامي جثة العبد الجاثمة، ولكننا لم نر أي أثر لبقية الرجال وبدا أن كل علائم الحياة قد اختفت.

وبدون كلام بدأ محجم يجري نحو السيارة وبندقيته جاهزة للإطلاق. طلبت منه العودة ولكن دون جدوى فنهضت وجريت لأتجاوزه. وبعد أن صرخت عدة مرات، توقف أخيراً حتى أستطيع اللحاق به، وتقدمنا جنباً إلى جنب مستعدين لإطلاق النار على أول علائم الحياة. وبدت لي الخمسون ياردة الأخيرة لا نهاية لها لأننا تقدمنا نحوسيارة العدو خطوة خطوة وبأعصاب مشدودة. لم يتحرك شيء.

كان منظراً مروعاً في السيارة فالعبيد الثلاثة المكدسين فيها جراحهم خطيرة ويشرفون على الموت والسائق فقط لا زال واعياً. واستلّ محجم مسدسه الموزر وعندما أصبح خلفه أطلق رصاصة في رأسه. وبسرعة وضع حداً لآلام الرجلين الآخرين بينما جمعت بنادق الرجال ومسدساتهم وذخيرتهم. إنهم جميعاً عبيد راكان.

في تلك الأثناء اقترب الظلام واتجه بصري إلى سيارتنا المحملة بقتلانا وفارس الذي يتمدد بجانبها وهو يشرفْ على الموت. ولاحت السيارة في الغسق ساكنة كالشبح. ولكن هل أنا في حلم؟ ففارس الذي تركناه ممدداً على الأرض فاقد الوعي يجلس الآن في مقدمة السيارة! رفع يده ولوّح لنا! إنها ليست هلوسة! تركت محجماً واقفاً في مكانه وجريت نحو فارس.

عندما جلست بجانبه مدّ ذراعه اليمنى ببطء ووضعها على كتفي وهكذا اتكأ علي واسترحنا جنباً إلى جنب لفترة من الوقت. أضأت النور في لوحة القيادة فسقط نور خافت على وجهه الشاحب. انتشرت رائحة عطرة مرضية من ثيابه المبللة بالدماء. حاول أن يتكلم ولكنه كان يعاني من آلام مبرحة فلم يستطع فتح شفتيه عن أسنانه.

عندما عاد محجم بدأنا الاستعداد لمتابعة مسيرتنا فأدرنا سيارتنا بعد عناء. ولم يعمل سوى مصباح أمامي واحد لأن الآخر أصبح قطعاً متناثرة.

أردت نقل فارس مباشرة إلى دمشق حيث يوجد عدد من الجراحين الفرنسيين الذين أعرف أحدهم. ولكنه هزّ رأسه بالنفي وطلب مني أن أحمله إلى عائلته تويما. كان مقتنقاً بأنه لم يبق له سوى وقت قصير وليس باستطاعة أي طبيب مساعدته. كما أنني لم يكن لدي سوى أمل ضئيل في شفائه مما جعلني أتوقف عن محاولة إقناعه وشعرت بالخوف من تحمل مسؤولية موته بعيداً عن أهله دون أن يرى حبيبته ثانية.

قال فارس متوسلاً: «إذا ذهبنا الآن سيمدّ الله في عمري لكي أرى تويما وأتزوجها وبهذا أخلّف «اسماً» ليشرف عائلة والدي فيما إذا اقتضت مشيئة الله أن أموت».

فارس أيها الأصيل من **سلالة إسماعيل**.

البدو (والوهابيون أيضاً) لا يعظمون قبور موتاهم ولكنهم يعتبرون أرحام الأحياء مباركة. وهكذا قررنا تنفيذ رغبة فارس. قبل التوجه نحو المخيم ذهبنا إلى سيارة السابا وموتاها الثلاثة فانتزعنا إطاراً جيداً وبعض القطع الجيدة التي ارتأى محجم فائدتها، كما نقلنا معظم وقودها إلى خزان سيارتنا، وصب محجم باقي الوقود فوق السيارة وأشعل فيها النار.وعندما ابتعدنا أضاءت هذه النار الجنائزية الصحراء المظلمة وفظائعها الخفية.

سرنا ببطء وحذر وفي الصباح وصلنا إلى مخيم الرولة.

* * *